الحسُّ المأساوي في شعر" عياش يحياوي"
" تأمل في وجه الثورة " أنموذجا

The tragic sens in the poetry of "Ayyash Yahyaoui" Reflections on the revolution "as a model

د. مبرك حسين*

د. عواج حليمة♣

تاريخ الإرسال: 2021/01/20	تاريخ القبول: 2021/09/05	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

كتب الشاعر عياش يحياوي القصيدة العمودية وأجاد كتابتها، ونظم القصيدة الحديثة، وكانت له قصائد حسان جياد، معتمدا على ثقافته الأدبية والنقدية، ومعرفته بمسار القصيدة العربية القديمة، وإلمامه بالأشكال والأجناس الأدبية التي عجت بها الساحة الثقافية، فامتلك الأدوات الفنية التي أتاحت له أن يبدع في فن القصيدة والسيرة الذاتية والبحث والتحقيق والإعلام ..ولم يكن الشاعر من الوزانين ممن يعنون برصف الألفاظ ونحت العبارة، والاهتمام بالقافية، ولكنه شاعر ملهم، متحرر من التقليد والترديد، ذو رؤية شعرية وخيال خصب سابح، وتصوير بديع، وتشكيل جميل، أسهم في التأسيس لوعي قرائي جديد .

الكلمات المفتاحية: القصيدة الحديثة، الأدوات الفنية، الأجناس الأدبية.

Abstract:

The poet Ayyash Yahyaoui wrote the vertical poem and was proficient in writing it, and he organized the modern poem, and he had Hassan Giyad's poems, depending on his literary and critical culture, his knowledge of the path of the ancient Arab poem, and his familiarity with the literary forms and genres in which the cultural arena was filled, so he possessed the technical tools that allowed him to innovate in the art of the poem,

* قسم اللغات والآداب، جامعة المسيلة، hocine.mebrak@univ-msila.dz

♣ قسم اللغة والأدب العربي والفنون، جامعة باتنة 1، halima.aouadj@univ-batna.dz

biography, research, investigation, and media. The poet was not one of the Wazzanin who was concerned with collating words, sculpting the phrase, and paying attention to rhyme, but he was an inspiring poet, free from tradition and repetition, with a poetic vision and a fertile imagination, a wonderful depiction, and beautiful formation, who contributed to the foundation of awareness My new reader.

Key words: *the modern poem, artistic tools, literary genre.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: حليمة عواج - aouadjhalima@gmail.com

1. مقدمة:

لقد حاول الشاعر" عياش يحياوي " أن يصنع لنفسه اسما، ويوجد له موقعا في خريطة الإبداع الشعري في الجزائر، التي كانت تزدحم وتكتظ بأسماء شعرية لا يستهان بها، واستطاع أن ينتزع مكانة له ضمن هذه الخريطة، وقدم لنا تجربة شعرية شقت طريقها نحو التجديد على مستوى البنية والمحتوى، من خلال ما أنتجه وأنجزه من نصوص شعرية فنية، مخالفة لما كان سائدا ومتداولا في المشهد الشعري في تلك الفترة، سواء من حيث البنية الفنية أم الجمالية، متجاوزا السقوط في الإشكال الإيديولوجي التي وقعت فيه بعض التجارب الشعرية، وغدت رهينة له، تسوق لمذهبه، وتروج لشعاراته، لاسيما في ظل المدّ الثوري في فترة السبعينات وبداية الثمانينات . فما هي طبيعة تجربته الشعرية؟ وما هي خصائصها الفنية والفكرية؟ وهل نجح الشاعر في التعاطي مع القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة؟ وهل كان شاعرا وزانا مقلدا، أو مجددا مبدعا؟

" تأملفي وجه الثورة " هو عنوان مجموعة شعرية، صدرت للشاعر عياش يحياوي في بداية 1983، تشتمل هذه المجموعة على اثنتين وعشرين قصيدة، جاءت في

أغلبها على النمط العمودي، وتمثل هذه المجموعة باكورة أعماله، كان قد كتب قصائدها بين 1977- 1980.

من خلال عنوان المجموعة، يتضح جليا أن الشاعر " عياش يحياوي " قد اتخذ من الثورة التحريرية مادة يستقي منها تجربته، ورافد ثرا يستمد منه عناصر الحياة التي لا يمكن أن تكون نمطا واحدا في سيرورتها وصيرورتها وتحولاتها وحاجاتها ومطالبها، بقدر ما هي كفاح ونضال ومغالبة ومطالبة وتضحيات ومواجهة للمصاعب والمتاعب، وصبر على المكاره، من أجل شق طريق العز والتحرر والمجد، ومن ثم وجدنا الشاعر يترجم في أشعاره هموم الوطن وآلامه، وأحزان الفرد ومتاعبه، وجراحات الأمة وأوجاعها.

2. ثنائية الوجع والتحدي:

ولعل بؤرة هذه الأوجاع، هي مأساة اليتم التي عاشها الشاعر، وتجرع مرارتها، وعانى ويلاتها في طفولته، الأمر الذي أورثه الإحساس بالوحدة، والشعور بالاغتراب والعزلة، فنراه لذلك يهدي ديوانه إلى والده: " إلى أبي رحمه الله، إلى أمي وأخي، وإلى كل الذين ظلموني " .[1]

إن هذا الإهداء هو عتبة نصية تعكس وتلخص لنا عمق المأساة، وحدة الجرح وشدة الوجع الذي طوق طفولته، وخلع عليها رداء من الحزن والبؤس والشقاء، رغم أن عزاءه الأكبر هو الثورة التحريرية الكبرى بعبقريتها وعظمتها، مقابل تضحيات جسام لرجال دفعوا أنفسهم وأموالهم ثمنا للحرية والاستقلال.

وها هو يعلن عن عتبة تجربته الشعرية والشعورية، بقولـــه :[2]

نَشـــَأْتُ فِي مَـــــرَافِئ السَّـهَر
اليُـــــــــــــتْـمُ زَ ا د
وَهِجْـــــــــرَتِي إِلَى امْتِـــدَاد

سـَـــــألْـتُ عَنْ أَبِـــــي
فَقِيــلَ مَاتَ فِي مَعَاقِلِ الْجِهَاد
صَبْرًا سَتَسْكُنُ القُصُورَ وَالرِّيَاش

إنه مقطع يجسد لنا حالة الاغتراب التي تتأبط الشاعر، جراء الإحساس بالفقد والحاجة إلى دفء الحياة وحضن الأبوة وحميمية الوطن وحرارة اللقاء ..

ويظل الشاعر أسيرا لهذا الاغتراب الرديف للمدينة، هذه المدينة التي كثيرا ما كانت معادلا موضوعيا لسرقة الأحلام وتبديد الآمال، وإزجاء العمر في غياهب الحيرة والشقاء والحرمان، والشعور بالضياع والضيق والقلق، حيث تنسد آفاق الحياة، وتكفهر المسارات وتضيق المسالك، وتنحسر المساحات والمسافات، وتصير الأوجاع هي الغذاء الذي به تذوي الأجسام، بل إن المدينة في رمزيتها- كما يراها الشاعر- هي دوامة تأكل الأعمار أكلا، وتسترق الفرحة والابتسامة من القلوب والشفاه، وتطمس كل شيء جميل، فليست إلا مدعاة للضجر، ومجلبة للملل والنكد، وديجورا يطفئ الأنوار، ويرسل العتمات، ويورث الإحباط وتثبيط العزائم، يقول :[3]

يَنْسـَى المكَــانُ مَكانَهُ وَيَغِيبُ يَشْرُدُ فِي المَدِينَـة
النَّبْعُ يَزْدَرِدُ المَصَـبَّ وَتَمْضَــغُ النَّاسَ المَدِينَة
نَأْتـي صِغَارًا يَسْتَبِينَا الآل ... نُزْهِـــرُ فِي المَدِينَة
وتَهِيــمُ ... نَرْكُــضُ خَلْفَهَا هيمَا.. نُغَازِلُهَا المَدِينَة
تَتَدَاخَــلُ الأيـَّامُ.. يَعْصِــرُ كَرَمُناَ لَيْلَ المَدِينَة
خَـــمْرَا لِأَبْنـــَاءِ الأَزَائِكِ.. ثُمَّ تُلْقِينَا المَدِينَــة
وَهْنَا ...قُشُــورا للنَّوَارِسِ يَسْحَرُ المَاضِي المَدِينَة
وَتَهِيــمُ بِالمِجْـدَافِ وَالبَحْرُ النَّشَــرُدُ وَالمَدِينَـة

يحترق الشاعر بنار الغربة، فيحاول بث شكواه، ونفث آلامه، ممتطيا خياله الخصب، محلقا في أجواء مفعمة بالأحزان والأشجان، فالألفاظ جراح، واللغة دماء، والصور أحزان وبكاء، والتراكيب دموع.. إنها مأساة هذا الوطن التي صنعها المستعمر البغيض.

يقول: [4]

غَرِيـــبٌ مِنْ دَمِي تَتَعَطَّرُ المَأْسَاةُ .. تَكْتَـــحِلُ
غَرِيـــبٌ مِنْ حِيَاضِ العَلْقَمِ المَسْمُومِ أَغْتَسِـــلُ
يَضُمُّ الحُـــزْنُ أَشْلَائِي سُكارَى ضَوْؤُهَا ثَمِـــلُ
يَقْطُـــرُهَا عَصِـــيرًا بَاكِيـًا فِي عُمْقِهِ الأَجَـــلُ

إنَّ تجربة عياش يحياوي الشعرية هي نقلة نوعية في مسار القصيدة الشعرية الجزائرية المعاصرة، من خلال بنيتها اللغوية والفنية التي تخاطب الذات المترعة بالقلق الموجوعة المأزومة التي ترفض التعايش مع الراهن المتردي، وهي تتجاوز النظم الرتيب المباشر الذي يدغدغ العواطف، ويسجل الوقائع، ويؤرخ الأحداث، لأن صاحبها لا يمارس الترف الفكري، ولا يتلاعب بالألفاظ، ولكنها بوح وإفضاء وانفعال ورؤية ثاقبة، وخيال سابح، لأن عبقرية الشاعر المعاصر" تتجسد في التغني بالحياة وجمالها الرائع والانتصار للإنسان، وقضاياه العادلة، حيث تزيد مشاعره التهابا وسط إفرازات عصرنا، وتناقضات واقعه... طامحا من خلالها إلى تحقيق حاجاته الإنسانية، وتحقيق أحلامه على أرض الواقع في جو يضمن له كينونته الخاصة التي لا غنى عنها.."[5]

لقد أدرك الشاعر تلك الغربة الحضارية التي يعيشها الإنسان الجزائري في وطنه، وبين أهله في تلك الفترة من تاريخنا، فما كان منه إلا أن أبى التشكي، ورفض هذا الواقع، محاولا تجاوزه، لبناء واقع جديد، يلبي مطامحه، ويستجيب لأحلامه، غير أنها

غاية صعبة المنال، وهذه المصاعب والمتاعب هي التي حملته على الدخول في مواجهة مع الغربة، والزمن الموبوء، يقول:[6]

أَجُوبُ الشَّارِعَ المَوْبُوءَ يَلْهَثُ عِبْءَ أَسْرَارِي
وَتُمْطِرُ فِي دَمِي الأَبْعَادُ.. يَخْضَرُّ المَدَى العَارِي
يُعَانِقُ أَلْفَ زَنْبَقَةٍ تَنُوسُ بِهُـدْبِ مِزْمَارِي
...
وَتَصْحـُو الغُرْبَـةُ السَّكْرَى عَلَى شَـلَّالِ مِيلاَدِي
فَتَحْيَا رَعْشَـةُ الوَتَرِ الخَطِيب وَخَفْقَةُ الشَّارِي
وَيَصْحُو السّنْدِيَانُ الحُلوُ يَعْشَـقُ وَهْجَ أَوْرَادِي
وَيَرْجِـعُ أَمْسُـــنَا المَنْفِيُّ مَحْفُـــوفًا بِأَنْشَـــادِ
تُبَـــارِكُهُ دِمَـــاءُ الحُبِّ حَافِلَةً بِأَمْجَـــادِي

إن هذه الأبيات تحيلنا على مرارة الواقع الذي يعيشه الشاعر، ويعيشه أبناء الوطن، واقع يعج بالضياع، ويضج بالهوان والمعاناة والقهر والألم.

أبيات تلونت بصور الإحباط والاغتراب الذي يعاني الشاعر من وطأته، ويحاول جاهدا الإفلات من ربقة هذا الواقع المزري، وهو ما يدفعه إلى أن يلوذ بعزلته وطفولته، لتلافي هذه المكاره والمتاعب التي أرقته وأقلقته وأنهكته، ذلك أن الشعر الحق" ليس مجرد أداة للإفصاح، بل هو جوهر الكيان بما فيه من روع الوحي ومغامرة الهجرة "[7]، وتظل تجربة الشاعر تتلون بغيوم الحزن والأسى، كمعادل للإحساس بالضياع والنفي والاغتراب والخيبة التي ولدتها ظروف اجتماعية وتحولات سياسية باتت تخيم على المجتمع، ومن ثمَّ فإن "غربة الشاعر تصبح غربة عابرة، فكما أنها ليست إحساسا كونيا، فهي أيضا ليست شعورا أبديا، إنها إحدى حالات الشاعر، وليست هي حالته الوحيدة"[8]، لكن الشاعر لايقف مبهوتا شاردا، ولكنه يلجأ إلى التنفيس مرة وإلى

الاستحضار والاستدعاء مرة أخرى، فيتخذ من " الأوراس" رمزا للتحدي والصمود والتضحية ومقاومة الشدائد والخطوب، رغم الإحساس بالكآبة الذي يملأ تفاصيل حياته، حيث يقول :[9]

غَرِيبٌ تَأْكُلُ الأَشْــوَاقُ فَاصِلَتِي وَتَشْتَعِـــــلُ
غَرِيبٌ مِنْ دَمِي تَتَعَطَّرُالمَأْسَاةُ ... تَتَكَـــــحَّلُ
غَرِيبٌ مِنْ حِيَاضِ العَلْقَمِ المَسْمُومِ ... أَغْتَسِلُ
يُطَــوِّحُنِي الأَسَى المَمْقُــوتُ ... فِي جَنْبِي يَقْتَتِلُ

3. صدمة الواقع وقلق المصير:

يتراءى لنا من ثنايا قصائده وحروفه وقوافيه الإحساس بالفجيعة واللوعة، وفظاعة الواقع، وتجهم الأيام والظروف، ويحاول أن يغترف من معجم لغوي، يجنح فيه إلى استعمال لغة غير رتيبة، تتجاوز كونها وسيلة أداء، إلى كونها بنية إيحائية رامزة، قائمة على الاختراق للسياقات المألوفة، فنراه يعبر بحرارة وانفعال عن هذا الفراغ الرهيب الذي يملأ حياته، وحياة بني قومه، ويعكر صفوها، وينغص عيشهم ويحوله إلى نكد، لتفقد الأشياء قيمتها، فنراه يقول:[10]

بُحَّت الأَصْــوَاتُ وَالدَّرْبُ خَـوَاءُ
وَتَسَـــاوَى الشّـعـرُ بِالأَفْيُـــون
وَالأَيَّامُ تَابُوتٌ خَرِيفيٌّ يَلُمُّ الغُرَبَاءَ

ولعل هذا الانفصال عن الواقع، قد تقاطع مع انفصاله عن المعجم التقليدي، يقول أحدهم : " إننا أصلا أمام إحدى صور انعدام التلاؤم بين المبدع والواقع، تأخذ على المستوى اللغوي طابع التضاد والتنافر الدلاليين"[11]، فالشاعر لم يعد يرتبط بواقعه وإن كان مرتبطا بحاضره، يتأثر به لكنه لايجاريه، يحاول أن يعيد بناءه وفق رؤيته،

ولايندمج فيه ولا يتصالح معه، يتجاوزه وإن كان يحاوره، ليصوغ عالما جديدا بديلا، تتحقق فيه القيم الإنسانية، وتسود فيه المكارم والمثل والقيم، منتقدا الأوضاع المزرية الجاثمة على صدر الإنسان، بأسلوب تهكمي ساخر، رافضا كل أشكال التخاذل والوهن والزيف والرداءة التي باتت ترسم المشهد العام للأمة، حيث يقول :[12]

نَجَحَ المُؤْتَمَرُ المُنْعَـقِدُ الأَلْـفُ
وَطَـــــنُ النـَّفْي الجَـــرَائِدُ
خَدَّرُوا السَّيْفَ وَهَامُوا بِالمَرَاثِي
وَأَذَاعُوا رَفْضَهُمْ خَلْفَ المَـوَائِد

لعلَّ أبرز ما يستوقفنا في هذه المقطوعات، شيوع ظاهرة الحزن التي تخفي وراءها نفوسا منكسرة متعبة مثقلة بالآلام.. زمن غير الشعراء يستطيع أن ينصهر من هموم الوطن الاجتماعية، ويعبر عن جراح الأمة وأوجاعها، إنه محاصر بواقع مترد أليم، إلى حد الشعور باغتراب رهيب، اغتراب اجتماعي وثقافي وسياسي وحضاري،شامل يعتري الأمة وينخرها، وهو ماذهب إليه "محمد ناصر" حين شخص ظاهرة الاغتراب في شعر الجيل الذي عاصره " عياش يحياوي " بقوله: أبرز ظاهرة تتجسد في هذه الأعمال، هي هذه الصور التي يتفجر منها إحساس هؤلاء الشباب بالحزن والضياع والاغتراب والقلق[13]، أما لفظة أوراس" فهي رمز للقوة والمقاومة والصبر والثبات والشموخ والتحدي، رغم الجراح والمحن، وهو يتردد في كل تضاعيف شعره، ولاعجب أنه يتغنى بأوراس الملاحم والمآثر، فكيف لايستحضر "يافا" و "غزة" وهما امتداد للأجيال والرجال، وكأني بالشاعر قد آلمه أنه لم يعش طفولته الناعمة الهادئة الماتعة، لذلكم نشعر بهذه الحساسية المفرطة بما يعانيه الأطفال في "يافا" و"غزة" تعذبه أصواتهم، وتروعه مشاهدهم، يقول:[14]

عِنْدَمَا يَسْـأَلُنِي الأَطْفَالُ عَنْ " يَـافَا "

عَن " الأُورَاسِ " عَنْ " غـَـــــزَّة "
تـَرْعـَـــى النَّـــارُ فِي صَـــــوْتِي
وَيَغـْـــــدُو الحَـــرْفُ سَيَّـــافَا

ورغم وطأة المعاناة، وعمق الجراح، وتجهم الواقع، إلا أن الشاعر يلوذ في كل مرة بالبيت الذي يسعه ويحتضنه، ويخفف عنه عبء الحياة، وعسف الظروف، وهو الوطن الذي يزرع فيه الكبرياء والشموخ، وينفث في روعه الدفء والأمان، فيراوده الأمل من جديد، وتشرق البسمة بداخله، لتستحيل أنغاما وألحانا وورودا، حيث يقول[15]:

إِنَّ نَهـْــرًا عَاشِـقًا لَوْنِي وَجِلـْدِي
لَاتُسَاوِيـهِ مُحِيطـَـــاتُ البِحـَار
فَدَعُـوا مَوْجِي لِعُصْفـُورٍ يُغنِّـي
نِصْفُ مَوَّالِي لَهُ وَالنِّصْفُ وَحْـدِي

إنَّ مثل هذه الصور الارتدادية التي يعود فيها الشاعر إلى ملاعب الصبا ومراتع الطفولة، تتردد في قصائده، باعتبار أن الطفولة قد تكون هي الملاذ والملجأ والمتنفس والمستقر، حين تضيق به سبل الحياة، وتكفهر الآمال، وتبرعم الآلام " ولا شك في أن عالم الطفل مما يجذب اهتمام الشعراء ويستقطب عواطفهم لما يمثل الطفل والطفولة من معاني الدهشة والبراءة والطهر والألفة ... فالطفل يجسد حلم الفنان في العودة إلى زمن الامتلاء والغضارة والحرية اللامحدودة " [16].

ويعود الشاعر مرة أخرى إلى الحلم والشغف بزمن الحب والاخضرار والجمال، وغناء الروح والطيور، وشموخ النخيل، والحنين إلى فجر الطفولة الضاحك، يقول :[17]

رُغـْـــمَ تَرْحـَـــالِ الحُقـُـــــولِ الغَجـَـــــــرِيَّة
وَاغْتـِـرَابِ النَّبـْـــــــــضِ وَالأَنْفـَـــــــاس

رُغـــــمَ الوَطَـــنِ الضَّائِـــعِ فِي الأَوْطَـــان
إنِّـــــي الرَّغـْـــدُ لَايَرْضَى سِـــوَى عُرْسِ الهُوِيَّة
العَصَـــافِيرُ تُنَادِيـــــنِي رَفِيـــــقَ الأَبَـــد
الشَّمَـــارِيـــــخُ تُنَادِيـــــنِي رَفِيـــقَ الأَبَـــد
ســـــأَلُـــــونِي: مَـــــنْ تَكُـــــونُ؟
قُلْـتُ : طَلَـــع وَانْفِـــجَـــارٌ فِي مَرايَا بَلَـــدِي

وحين سئل الشاعر في حوار أجري معه بجريدة الجمهورية،قال: إن طفولتي هي أعظم قصيدة أطمح إلى كتابتها،وفي نظره الطفولة هي أعظم خزان يستقي منه الشاعر عصارة تجاربه الإبداعية. "[18]

وتتجلى سمات الطفولة كملمح بارز في شعره،حيث تغدو معلما يهتدي به وسط لجج من القلق الجارف، وحرائق لا تكاد تخفت إلا لتثور، يضرمها واقع اختلت قيمه وموازينه واضطربت مفاهيمه، فلم تبق أمامه مساحة للتنفس، غير فضاء الطفولة التي تمثل البراءة والصفاء والنقاء من أدران الحياة وأوضارها، يقول :[19]

الأَمْـــــسُ وَلَّى .. وَالغَـدُ الأَطْفَالُ
لَمْ تَبْـــقَ لِلْقِيَـمِ الخَرَابُ ظلالُ
لَا مَجْـــدَ إِلَّا أَنْ تُعَانِـــقَهُ البـَرَا ..
ءَةُ ... يَنْتَشِـــــي فِي غُـــرَّة الأَطْفَال

4. الهمُّ الجاثمُ والجُرحُ النَّازفُ:

إنه يكتب بلغة تترجم معاناته، وتعبر عن ذاته وإحساسه بصدق، دونما تكلف أو تصنع أو زيف، وأسلوبه عفوي، لا توعر فيه ولاتقعر.

إن تجربة عياش يحياوي الشعرية، هي نموذج يعكس لنا تلك التحولات التي اعترته، وأضفت عليه خصائص معينة، وطبعته بطوابع خاصة، وجعلت منه تجربة لها خصوصياتها وفرادتها.

ولعل أهم مؤثر أحدث تحولا هائلا في بنية القصيدة الشعرية الجزائرية، من حيث الرؤية والمنهج، هو الثورة التحريرية التي أخرجت جيلا من الشعراء الذين استلهموا منها الوطنية والشموخ والإباء، فعبروا عن وحدة الشعب وآلامه وآماله ووجدانه، وتغنوا بالقيم والمثل العليا والمبادئ التي ينبغي أن تسود، مثلما تغنوا بقيم الحرية والاستقلال، وعبروا عن معاناة الشعب، وما حل به من مآس، وما جثم على صدره وأثقل كاهله من جهل وفقر ومرض واستبداد واستغلال لطاقاته، واستنزاف لخيراته، وتلكم هي المهمة الكبرى التي اضطلع بها الشاعر عياش يحياوي، وظل ينافح دونها، ويعمل بقلمه من أجل نهضة المجتمع وتحريره من نير العبودية، ومحاربة مظاهر الاحتلال والاختلال والاعتلال والهيمنة، بل إن الشعراء الجزائريين" لم تطغ عليهم أحداث وطنهم المحلية، ولم يغرقوا في قضاياهم الداخلية.. وإنما تعاملوا مع واقعهم، وتفاعلوا مع الواقع العربي، وشاركوا في قضايا عربية كثيرة، وفي مقدمتها قضية فلسطين، وكان تفاعلهم مع هذه القضايا بوحي من إحساسهم العميق بعروبتهم، وبأن الجزائر جزء من الوطن العربي الكبير"[20]، وهذا الشاعر" عياش يحياوي " قد تأمل وجه الثورة، وقرأ تقاسيمها وملامحها، وتمعن في تفاصيلها وتحولاتها وآثارها، بعد أن انصهرت أحداثها وأطوارها بوجدانه، فاندمج فيها وراح يستلهم عبقريتها، لينطلق في عملية البناء والهدم، بناء واقع أفضل يليق بكرامة الإنسان، وهدم الرداءة التي أساءت للإنسان وأورثته الإفلاس.

وليس هناك شيء يضر بالإنسان أكثر من إحساسه بالفقد والضياع بين أهله وفي وطنه، لقد عاش الشاعر حينا من الدهر كالطير المهاجر، بعيدا عن الأهل والوطن، فراح

يجتر ذكرياته الحارقة، ويصطلي بنار أحزانه، ويكتوي بدموعه، لكنه لم ييأس، ولم ينطو على نفسه، وينفصل عن الحياة، وعن الوطن، بل ظل في عز محنته يتغنى ببصيص آماله، باحثا عن مرتع لأحلامه الطائرة، وهاهو يقول في موضع آخر:[21]

مِثْـــلُ الطُّيـــــُورِ قَدْ امْتـــَلَأَتْ بِالغِـــنَاء
قُبَيـــــْلَ حُلـــــُــولِ الظَّـــــــلَامِ أَرَانِـــي
أُزَوِّجُ للنـــَّجْمِ وَهْمِي وَأُنْكِـرُ تُفَّاحـــَــةَ الأَرْض
تُشْـــــحَنُ أَرْيَاحُـــهَا بِالعَـوِيـــــــــل
أَنـــَـــامُ وَتُفْـــزِعُنِي رَغْبَتِـــي فِي البُكَـــاء
وَأَســـْــــرَحُ بِالإِبِـــلِ الشَّـارِدَات بِرُوحِـــي
أُقَلِّـــبُ كُـــلَّ أَثَـــافِي الدِّيَـــــــــار

إن هذه الأبيات هي غناء كالبكاء، أو هي بكاء كالغناء، مزيج من الأمل والألم، والغيوم والصحو، إنها رحلة يتقلب فيها الشاعر بين مواجع وفواجع، وآمال وذكريات رواجع، يمزج بين الحوار الداخلي والسرد والوصف، فهو يصور الأبعاد المأساوية للهجرة والاغتراب، فيلجأ إلى محاورة الليل والنجوم، والإبل والصحراء، وآثار الديار والأطلال، وهو أسلوب يرتد فيه الشاعر إلى الماضي، فرارا من الواقع المظلم، وإعراضا عن سوء الأحوال وتجهم المستقبل الغامض، إنه أمر يوحي بحجم المعاناة النفسية، وما يتأجج بداخله من عواصف الحنين والشوق للأهل والوطن التي تصطدم بالقهر والاستغلال وانقلاب الموازين التي تهيمن على المجتمع، وها هو يصور هذه الرحلة الشاقة في مضمار العمر، رحلة محفوفة بالأسئلة المفجعة وسط عالمه النفسي المشوب بالحيرة والقلق والوحدة والاغتراب، يقول :[22]

سَأُعَـــــالِجُ مَا تَبَقَّـــــى مِنَ العُمْـرِبِالصَّعْـــلَكَـات
وَتَحْتَ الجُسُورِ أُشَيِّدُ دَوْلَةَ مَنْ عَشقُوا ثُمَّ مَاتُوا فُرَادَى

أَصِيـــــحُ بِمَا فِي دَمِـــي مِـــنْ نَهَـــارٍ أَخِيـــر
وَأَتْلُو التَّعَاوِيـــذَ أَحْمِلُ نَافِذَتِي وَأَجُـــولُ بِهَا فِي العَوَاصِم
عَـــــلَّ جِـــــــدَارًا أُصَـــــــادِفُهُ قَائِـــما
أَتَوَسَّـــمُ فِيـــهِ البَرَاءَةَ أَرْشُـــــقُ نَافِذَتِي فِي مَخَاوِفِه
ثُمَّ أَنْسُـــــجُ مِنْ حَشْـرَجَـــتَاتِي الشِّـرَاعَا وَدَاعَا وَدَاعَا

ويظل يحمل أشعاره، ويصطحب ظله، ويمضي في دربه غير آبه بشيء، سوى بحرائقه الداخلية التي تزداد اضطراما، ولايقوى على الفكاك منها، لأنها نار ونور، وماء وظمأ، يقول:[23]

وَهَـــذَا هُـــوَ الشّـــــعْرُ فَاتِـــنَتِـي
لَيْـــسَ فِيهِ الْتِذَاذٌ سِوَى حُرقَة العُمْـر

ذلكم هو صراع الإنسان الشاعر الفنان مع تناقضات الحياة ومفارقاتها، وهذه العلاقة التصادمية هي التي تحكم الشاعر وتحركه وتحمله على الثورة على كل أشكال وألوان التخلف والبؤس والقهر الذي يعيشه الفنان.

ورغم الانكسارات والفواجع والحرائق التي تأكل العمر أكلا، وتسترق منه الفرحة والبسمة، وتنغص عيشه، وتعكر صفو حياته، إلا أن الشاعر في كل مرة، يحاول الإمساك بطيف الطفولة الرابضة بداخله وبوجدانه وبشعوره، وكأنه يستضيئ بسناها الذي يشع في جوانحه نورا يلوح مرة، ويخمد مرة أخرى، في مفارقة لا تخلو من غرابة ودهشة، يقول :[24]

وَمَـــــــنْ قَـــــــالَ إِنِّـــــي كَبِـــرْتُ؟
وَفِـــــي الـــدَّمِ لَثْـــغَةُ رِيـــشِ الصِّـــبَا
وَالدَّجَـاجُ الذِي عَكَّر النَّوْمَ عَنْجدّتـي فِي الظَّهِيـرَة

لَا زَالَ يَعْبَـثُ بِـي فِـي دُجَـى غُرْفَتِـي
وَنَقِيـقُ الضَّـفَـادِعِ أَسْمَـعُهُ قُـرْبَ نَافِـذَتِي
قَـادِمًا مِنْ بَعِيـدِ السِّنِيـنِ مُهَلْهَلَةٌ رُوحُهُ لِلنُّجُـوم
وَهَـذَا الذِي فَـوْقَ وَجْهِـي مِن العُشْـب
لَيْـسَ سِـوَى مَا سَـقَتْهُ دُمُـوعُ الطَّرِيـق

غير أن الشاعر – رغم شدة المعاناة وانسداد الأفق - يأبى إلا أن يتماسك، فنراه يغالب ويتحدى المتاعب،ويصارع ويحمل نفسه على مغالبة الغربة والاغتراب، فلا يتصاغر ولاييأس، ويعبر عن ذلك بصور مبتدعة، ولغة رمزية غامضة، تحيل على التأويل والدهشة والذهول، يقول :[25]

سَـأَفْقَـأُ هَـذِي السَّمَـاءَ
صُعُودًا إِلَى حَيْثُ يُفْجِعُنِي فَرَحِي الدَّمَوِي
وَقَفْـةُ جَـدِّي وَنَاقَتُـهُ وَخِـرَافِي
إِلَى حَيْثُ أَفْنَـى عَـلَى صَفْصَـافَة
وَأُغَنِّـي ... الخُـرُوجُ إِلَى الغِنَاء

إنه زمن النص المتعالي الذي يصنع الواقع ولايصنعه الواقع، يحاول اختراق الحواجز والنفاذ إلى قلب الحقائق المضمرة في تفاصيل الحياة وجزئياتها، إنها صور القلق المبدع والإحساس بالضياع الخلاق، والاغتراب المثير الذي يحمل صاحبه على عبور مساحة النكبات، وطي صفحة النكسات، رغم المشاهد الصادمة والجروح النازفة، وما تتلون به من توتر وخيبة، ترافقها إيقاع موسيقي متدفق حزين، وصور متلاحقة موحية، فالشاعر يعبر بالصورة التي يمتزج فيها الألوان والخطوط والمشاهد، وتلك هي بعض مقاييس الشاعرية، وهذا ما أشار إليه أحدهم بقوله: "من الأفضل أن نقدم صورة شعرية واحدة طوال الحياة من أن ننتج كتبا عديدة "[26].

أما المدينة بضوضائها وصخبها وتقلبها ورهبتها، فلطالما اشتكاها الشاعر، مصورا غربته بين جنباتها، وضياعه في أرصفتها، ووحدته في تشعب آفاقها وامتداد أنفاقها.. فهي البحر في رهبته يلتقم كل مغامر، وهي الفراغ الذي يلتهم البائسين المحرومين والمستضعفين، فنراه يغني في شجون، حين يقول:[27]

يَنْسَى المَكَانُ مَكَانَهُ وَيَغِيبُ يَشْـرُدُ فِي المَدِينَة
النَّبعُ يَزدَرِدُ المَصَـــــبّ وَتَمْضَغُ النَّاسَ المَدِينَةُ
تَتَدَاخَلُ الأيَّامُ .. نَنْضُجُ.. نَمْنَحُ العُمْرَ المَدِينَةَ
وَنَهِيمُ .. نَرْكُضُ خَلْفَهَا هيمَا.. نُغَازِلُهَا المَدِينَة
تَتَدَاخَـلُ الأَيـَّامُ..يَعْصِرُ كَرَمُنَا لَيْلَ المَدِينَة
خَمـــْـرًا لِأبْنَـاء الأَزَائِك.. ثُمَّ تُلْقِينَا المَدِينَةُ

ولعل كلمة المدينة، هي الكلمة المفتاحية التي يمكن من خلالها الولوج إلى عالم الشاعر، ومكابدته من عتوها، لأنه لم ير منها إلا غير الإحباط والتثبيط، ومن قصائده الباكية التي تضج بالشكوى والأنين، والإحساس بالتمزق والتأزم، يقول:[28]

يَـارِحـــــلَةَ الأَشْـوَاقِ وَالإِبْحَـار يَاضَيْعَةَ الأَحْـــزَان والأَسْـفَـار
مَـاذَا أقُـولُ وَفِي دَمِي شَاخَ الأَسَـى وَالدَّمْـعُ فِي حَلْقِي وَفِي قِيثَـارِي
زَيتُونُ أَفْرَاحِي تَثَـاءَبَ وَانْحَـــــنَى كَمَـدًا وجَفَّ الشّعرُ فِي مِزْمَـارِي
مَلْيُـــونُ عَـــام وَالسَّنَابِلُ فِي يَدَي عَطْشَى وَنَارُ القَحْط تَأْكُلُ نَـارِي
مَلْيُـونُ عَام والسَّـوَادُ مَشَـــانِـقُ تَرَدَّى عَلَى أَسْـــوَارِهَا أَزْهَـــارِي

لقد صاغ الشاعر نصه بلغة، طافحة بالحزن مثقلة بالأسى، تتنفس شكوى من واقع مأزوم موبوء، متردٍ.. واقع كله دموع، نار، قحط، ودم وسواد، وأسى.. ولعل الفكرة المحورية في تأملاته هو محاولة لتحرير الذات المستلبة والدفاع عن القضايا الحضارية للأمة، " لأن ارتباط الشاعر الجزائري بالتاريخ الوطني والأحداث المتتابعة جعله يكون في

محور الفعل الثوري لا على هامشه، فالصورة الجمالية استمدت عناصرها من الصورة التاريخية، وتحول المكان إلى عنصر هام في بناء النص الشعري الثوري الجزائري، وأصبح يشكل مركز النص. "[29]

5. خاتمة:

لقد حاول الشاعر أن يعبر عن مأساة هذا الوجود الذي يختلط فيه البكاء بالغناء، ويتداخل فيه الحزن بالسراء فالشاعر يملك مجال رؤية واسع، أتاح له أن يعبر بعمق وشمولية عن تجربته التي تتمازج فيها الألوان والأشكال والمشاهد،ليصنع منها صورا مركبة، تترجم تعقد الحياة والوجود، وهكذا رأينا الشاعر يتخذ من المدينة موضوعا له، وربما كانت ثقافة الشاعر ومعرفته هي التي حملته على نزوعه منزع التأمل، وما ينتج عنه من إبداء لمشاعر الحزن والإحساس بالتمزق والضياع والاغتراب، على نحو مانراه عند بعض الشعراء الغربيين والشعراء العرب، مثل : ت . س.إليوت في " الأرض الخراب"، وصلاح عبد الصبور في " الناس في بلادي"، وأحمد عبد المعطي حجازي في " مدينة بلا قلب "... وقد أمست الحياة في نظر " عياش يحياوي" رتيبة كالحة متجهمة، باعثة على الملل والسآمة والضجر، وكثير من شعره هو مسرح لصراع بين المبدأ والعاطفة، وبين الواجب والواقع، وصدام بين الذات والوجود، في ظل اهتزاز القيم واختلال المفاهيم والمقاييس، ومن ثم تولدت مشاعر الغربة والضياع والتمزق " وربما جاهد بعضهم في سبيل أن يخلق المعادلة بين الذات والوجود، ولكن جهدا كهذا لابد أن يصيب الذات بالتمزق، فلن تتحقق هذه المعادلة- إن هي على الإطلاق تحققت- إلا على حساب الذات والوجود معا، وهكذا نجد الشاعر قد وقع تحت وطأة الإحساس بهذا التناقض والمفارقة بين ماهو قائم وواقع وموجود في الحياة، وبين ما ينبغي أن تكون عليه، ولعل عدم قدرته على التكيف مع معطيات الحياة وظروفها وتحولاتها، هو الذي حمله على الرفض والثورة والتحدي، رغم الخيبات والانكسارات .

6. الهوامش:

[1] حسن فتح الباب، شعر الشباب في الجزائر بين الواقع والآفاق، المؤسسة للوطنية للكتاب، د. ط، الجزائر، 1987، ص191.

[2] عياش يحياوي، تأمل في وجه الثورة، المؤسسة الوطنية للكتاب، د. ط، الجزائر، 1983، ص 34.

[3] محمد بوشحيط، الكتابة لحظة وعي، مقالات نقدية، المؤسسة للوطنية للكتاب، د. ط، الجزائر، 1984، ص21.

[4] عياش يحياوي، تأمل في وجه الثورة، ص 39.

[5] إدوار الخراط، قراءة في ملامح الحداثة، دار النشر للآداب،د. ط، بيروت، لبنان، 1999، ص 75.

[6] غالي شكري، شعرنا الحديث إلى أين، دار الشروق،د. ط، القاهرة، مصر، 1991، ص 214.

[7] عياش يحياوي، تأمل في وجه الثورة، ص29.

[8] المصدر نفسه، ص 28.

[9] عبد الله راجع، القصيدة المغربية المعاصرة، منشورات عيون، ط2، الرباط، المغرب،1987، ص26.

[10] عياش يحياوي، تأمل في وجه الثورة، ص 41.

[11] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، د. ط، الجزائر، 2013، ص 534.

[12] عياش يحياوي، تأمل في وجه الثورة، ص 46.

[13] المصدر نفسه، ص 41.

[14] عثمان حشلاف، الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر، منشورات الجاحظية،ط1، الجزائر، 2000، ص 27.

[15] عياش يحياوي، تأمل في وجه الثورة، ص 47.

[16] عبد الحميد هيمة، الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري، اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر،2003، ص39.

[17] عياش يحياوي، تأمل في وجه الثورة، ص 53.

[18] عبد الله الركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، دار الكتاب العربي، د. ط، الجزائر، 2009، ص25.

[19] عياشيحياوي، تأمل في وجه الثورة، ص 72.

[20] المصدر نفسه، ص 73.

[21] المصدر نفسه، ص55.

[22] المصدر نفسه، ص 55.

[23] المصدر نفسه، ص52.

[24] المصدر نفسه، ص 52.

[25] المصدر نفسه، ص 54.

[26] محمد الصالح خرفي، بين ضفتين، دراسات نقدية، اتحاد الكتاب الجزائريين،د. ط، الجزائر، 2005، ص 102.

[27] عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر،قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، دار الثقافة، ط2، بيروت، لبنان، 1973، ص 358.

[28] عياش يحياوي، تأمل في وجه الثورة، ص 56.

[29] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ص 359.